المقياس: العمران والمراكز الحضارية.

المستوى: سنه أولى ماستر تاريخ التغرب الإسلامي

- **المحاضرة 01: مدخل إلى العمران**

أشار القرآن الكريم إلى استخلاف الإنسان في الأرض لتعميرها، قال الله تعالى:" قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر طيف تعملون" الاعراف الاية 129.

وقال تعالى:" وعد الله الذين أمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستحلفكم..." النور، الاية 55.

أسس الرسول (ص) الدولة الإسلامية في المدينة المنورة، وكانت بيده السلطات الدينية والسياسية بمفهمومها الواسع الذي يشمل جميع طوائف حياة المجتمع الإسلامي.

ساهمت المدن الإسلامية مساهمة كبيرة في نشر الإسلام وتركيزه في المناطق المفتوحة، وقد جاء إنشاء المدن من طرف الخلفاء الراشدين في الأيام الأولى لظهور الإسلام ليخدم الأهداف الاستراتيجية التي رسمها هؤلاء القادة، ذلك أن ظهور هذه الرسالة السماوية في مكة لم تكتسب قوتها إلا بعد هجرة المسلمين إلى يثرب وإنشائهم لمجتمع إسلامي بها. ولم يعرف الإسلام انتشارا واسعا وثابتا في البلاد المفتوحة إلا بعد تأسيس معسكرات- تحولت مع مرور الزمن إلى مدن كبيرة- فقد توجت فتوحات العراق بإنشاء مدينتي البصرة والكوفة لتكونا معسكرين للجند العرب الفاتحين لتأكيد الفتح، ولم تستقر الأوضاع لصالح المسلمين لم يتمكنوا أيضا من السيطرة على بلاد المغرب إلا بعد أن أسسوا بها مدينة القيروان لتكون لهم معسكر يستقرون فيه وينطلقون منه لمواصلة الفتوحات.

إن هذه الاستراتيجية التي اعتمدها الخلفاء الراشدون في عملية الفتح، هي التي كانت السبب في نشوء عمران عربي إسلامي، استمد قواعده من الدين الإسلامي الحنيف الذي جاء من أجل خدمة الإنسان وترقية اجتماعيا.

تعريف العمران: كثيرا ما يستعمل مصطلح في العمران في كتابات المختصين، وفي الأحاديث اليومية. فماذا يقصد العمران؟

لـغـة:

العمران: العمائر: جمع عَمارة أو عِمارة، أي عمارة الأرض، و هي فوق البطن من القبائل أولها الشعب ثم القبيلة ثم البطن ثم الفخذ[1].و تعني أيضا السكن في موطن ما بصورة دائمة، و العمل على إقامة بنيان هذا السكن و تأهيله، و العمل على تقدمه و ازدهاره[2].

وأصل كلمة عمران "عمر "التي تعني إما: أ – أن يعيش أو يسكن أو يقطن أو يستقر فيبقى في مكان ما.

ب – أن يصبح مسكونا أو مستقرا أو مزروعا، أي عامرا بالناس و الحيوانات و النبات، فيصبح بحالة حسنة، و هو شيء يخالف الفقر و الضياع و الخراب. ج – الزراعة أو البناء أو الأشياء[3].

ب – اصطلاحا: أما مفهوم العمران الإصطلاحي، فسنركز على ما ذكره بن خلدون، فمحمد رعد يقول عن كتاب العبر:

"وإنما هو على الأكثر عنوانا لمحاولة جريئة علمية تضع العمران كعلم في مقدمة العلوم الطلائعية، فيجعل العالم في مسيرته التاريخية قائما عليه كنظام عالمي يستند في الأساس على الفكر و الحس السليم، و يقوم على التجربة و هي تجارب الأمم في غابر حياتها و حاضرها...إن تاريخ ابن خلدون الكبير مع "المقدمة"، يصلح أن يكون مدخلا للكتابة عن العمران، إذ استطاع أن يمهد السبيل لنشر أفكاره و تعميمها عن طريق التاريخ[4].

فعنوان المؤلف الذي ابتدأه بـ"العبر"، يعني ما استخلصه أو يجب أن يستخلصه كل من أراد أن يتابع آراءه في تحديد معاني العمران، و هو ما اصطلح على الرمز إليه بـ"المبتدأ" لأنه قديم قدم الخليقة، و بعد ذلك وجد أن ليس هناك فن اجل و أفضل من "التاريخ" الذي سماه "الخبر"، وهو من ألصق الأمور بـ"المبتدأ"، فأصبح العنوان بذلك يعني ما يحصل عليه الإنسان و المجتمع البدوي و الحضري في أدوار ترقيه عبر التاريخ، وهو ما اصطلح عليه ابن خلدون لكلمة "العمران"[5] .

---

[1] – ابن منظور : المصد السابق، الجزء 4، ص280

[2] – سعيد محمد رعد : العمران في مقدمة بن خلدون، دار طلاس للدراسات و الترجمة و النشر، ط1، سوريا، دمشق، 1985، ص27.

[3] – نفسه، ص522.

[4] – سعيد محمد رعد: المصدر السابق، ص– ص 12– 13.

[5] – عبد الرحمن بن خلدون : المقدمة، المصدر السابق، ص58.

و يعرف ابن خلدون العمران بما يلي:"و هو التساكن و التنازل في مصر أو حلة للأنس بالعشير واقتضاء الحاجات، لما في طباعهم من التعاون على المعاش، و من هذا العمران ما يكون بدويا و هو الذي يكون في الضواحي و الجبال و القفار و أطراف الرمال، و منه ما يكون حضريا، و هو الذي بالأمصار و القرى والمدن..."[6].

و يجعل ابن خلدون للعمران عمرا محسوسا كالأشخاص بقوله:"و العمران كله من بداوة و حضارة و ملك و سوقة "الرعية" له عمر محسوس، كما أن للشخص عمرا محسوسا، وتبين في المعقول و المنقول أن الأربعين سنة للإنسان غاية في تزايد قواه و نموها". كما يربط ابن خلدون العمران بـ"المدنية" في الباب الأول من "المقدمة":"...أن الإجتماع الإنساني ضروري، ويعبر الحكماء عن هذا بقولهم: (الإنسان مدني بالطبع) أي لا بد له من الإجتماع الذي هو "المدنية" في اصطلاحهم وهو معنى العمران[7].إلا أن المدنية عند اللغويين مشتقة من لفظ تمدن الرجل أي هي صفة اكتسابية تظهر في سلوك الشخص، و هي وليدة التربية و التهذيب، أي التخلق بسلوك مهذب و جميع ما هو ضد الوحشية و الهمجية، أما العمران فهو وليد العلم و الإختراع وهو جزأ من الحضارة يضم أنظمة جماعية و اختراعات مادية محسوسة[8].و يعطي بن خلدون الإنسان الدور الأول في مفهومه للنظرية العمرانية، حيث اعتبر العضو البشري أساس الاجتماع الإنساني، وبالتالي اعتمار و عمران العالم[9].

إن ابن خلدون استعمل مصطلح العمران للتعبير عن الاجتماع البشري و نتاجه، كما استعمل علم العمران مشيرا إلى دراسة ظواهر هذا الاجتماع[10].

يرتكز العمران على ثلاث قواعد أساسية أو أصول عامة و هي:

أولها: المكان الذي يتسنى للناس الإقامة فيه و الاستقرار و السكنى.

---

[6] – نفسه، ص56.

[7] – نفسه، ص57.

[8] – محمد بن عبد الكريم الجزائري : المرجع السابق، ص– ص 40– 41.

[9] – سعيد محمد رعد : المرجع السابق، ص57.

[10] – عبد الرحمن علي حجي : المرجع السابق، ص69.

ثانيها: الاجتماع الإنساني، أي اجتماع الإنسان و تعاونه مع غيره و هي من طبائع العمران، و هنا يقول ابن خلدون: "أعلم أنه لما كانت حقيقة التاريخ أنه خبر عن الاجتماع الذي هو عمران العالم..."[11].

ثالثها: العمل الذي لا يتم إلا بمساهمة كل فرد قدر استطاعته، إذ أن مظاهر العمران أعمال من تدبير الإنسان، لهذا دعا بن خلدون العمران بأوصاف منها: العمران البشري، العمران البدوي، والعمران الحضري. فنظريته ترتكز على أبعاد كثيرة أهمها النواحي الإنسانية الاجتماعية و المكانية والزمانية، أي (الإنسان– المكان– الزمان) و هي الركائز الثلاثة الأساسية لقيام العمران.

إن البيئة الجغرافية لها دور في لم شتات الجماعات البشرية و توحيد نشاطها العمراني، و يستنتج من هذا سر تمركز جل الأديان و البعثات النبوية في المنطقة المعتدلة من جزيرة العرب و الشام ومصر[12].و إن كان إنسان العصر الحديث قد تمكن بفضل الله و العلم و الإرادة و العمل من جعل قلب الصحراء و الجبال و الأوعار بوادر حضارية و منجزات مدنية عظيمة، و تمكن من الاستفادة من كل مكونات البيئة[13].

لقد اختلف العلماء في تحديد معاني العمران بالضبط، فمنهم من سماه المدنية و آخرون سموه بالثقافة وكثيرون جعلوه مرادفا لكلمة الاجتماع، لكن الحضارة و الثقافة تختلفان عن العمران الذي يشمل كل شيء إنساني و حضاري و ثقافي، فالحضارة و الثقافة تبدئان حين ينتهي عمر العمران، أي أنه سابق الوجود عنهما.

و خلاصة القول أن العمران دور يقوم به الإنسان منذ الخليقة بالتساكن و الاستقرار في مكان ما، بقصد التعاون و التآنس للحصول على معاشه بالعمل و التفكر، و بالتالي تحصل العلوم والصنائع الكثيرة، و ذلك على مر الأيام و الأجيال.

العمران البدوي و الحضري وأنواع العمران

أ– العمران البدوي و خصائصه[1] :

Øالعمران (أو الإجتماع) نوعان:

---

[11] – سعيد محمد رعد : المرجع السابق، ص208.

[12] – عماد الدين خليل : ابن خلدون اسلاميا، المكتب الإسلامي، ط2، بيروت، دمشق، 1985، ص41.

[13] – توفيق محمد سبع : قيام حضارة في القرآن، ج1، دار المنار، ط2، القاهرة، 1984، ص59.

بدوي و حضري أما الأول فهو سابق للثاني (في الزمن) فإن أهل الحضر مهاجرون من البدو ، كما أن أهل البادية يقدمون لأهل الحضر ما يحتاجون إليه من الأطعمة النباتية و الحيوانية ، ثم أن العمران البدوي و العمران الحضري ضروريان ، وموجودان معا دائما جنبا إلى جنب.

العمران البدوي أو البداوة هي الإكتفاء بالضروري من أسباب المعاش في المأكل و الملبس و المسكن من هذا : " الإكتفاء بالضروري" تتفرع جميع خصائص البداوة (بما فيها من حسنات و سيئات)

Øالرحلة في طلب المعاش من مكان الى مكان في البادية سعيا وراء الماء و الكلاء وتكاد تنحصر مآكل البدوي في نتاج انعامه (اللبن واللحم) من اجل ذلك كان البدو لا يستقرون (رحلا) في مكان مدة طويلة بل ينتقلون بانعامهم من الابل والخيل والغنم وهم ينزلون عادة في الاماكن الفسيحة من البادية [2] بعيدا عن المدن اما في المغرب فإن البدو يقومون على تربية الحيوان كالبدو في المشرق

و يعملون في الزراعة أيضا

Øالقوة و الشجاعة : البدو اصح أبدانا (أهل الحضر) للنشأة الطبيعية و لصحة الهواء في البداية من أجل ذلك كان البدو أقل تعرضا للأمراض و أقدر على إحتمال المشاق و المجاعات ثم هم أكثر شجاعة لإضطرارهم الدائم إلى الدفاع عن أنفسهم في وجه العدو المغير و في رد الحيوان المفترس

Øالعصبية : شعور جماعة من الناس يعيشون في مكان واحد و في أمكنة متفرقة لأنهم ينتمون إلى أصل واحد و يشد بعضهم إلى بعض روابط من المنافع المادية ومن الأحوال الإجتماعية ومن المثل العليا

و الأصل في العصبية أن تكون قائمة على النسب ، و العصبية ضرورة في البادية.

من أجل ذلك كان النسب القريب بين أهل العصبية و كثرة عدد أهل العصبية أمرين مهمين جدا في البادية.

الظلم و البر : ومن خصائص البداوة الظلم فإن البدو يعتمدون في الدفاع على أنفسهم وحده من اجل ذلك إحتاج كل قوم منهم إلى إرهاب خصومهم و أعدائهم فإضطرهم كذلك إلى أن يبدءوا غيرهم في العدوان قبل أن يبدأ غيرهم بالعدوان وهذا هو المدرك الجاهلي في الظلم.

و يقول إبن خلدون في العمران البدوي عامة:

"إن أهل البدو...مقتصرون على الضروري من الأقوات و الملابس و المساكن وسائر الأحوال و العوائد المقتصرون عما فوق ذلك...يتخذون البيوت من الشعر و الوبر

و الشجر أو من الطين و الحجارة ...و هؤلاء هم العرب ... فقد تبين أن جيل العرب

(البدو) طبيعي لابد منه من العمران"...

ثم يقول إبن خلدون" العرب(البدو) يتغلبون إلا على البسائط(الأراضي المستوية) عند فقدان الحامية و ضعف الدولة و لكنهم لا يذهبون إلى المزاحفه و المحاربة إلا لدفاع على أنفسهم" ...

-([1]المرجع السابق ص 293-294

- [2]البادية أرض بعيدة عن العمران

الإنتقال من البداوة إلى الحضر:[1]

يكون الإنتقال من البداوة إلى الحضارة بسببين و بوسيلتين أما السببان فهما:

زيادة الثروة التي تدعوا إلى الترف و التمتع بثمرة الغني و بما أن أوجه الحياة في البادية محدودة و الكماليات التي يكون بها الترف معدومة فإن الذين تعظم ثرواتهم يحبون الإنتقال الى الحضر – في المدن الكبيرة- حيث يتيسر لهم الإخلاد إلى الراحة و الدعة و التمتع بالثروة العظيمة التي كانوا قد جمعوها لينفقوها في وجوه الترف و التقلب في النعيم و أنواع الملاذ وإتباع الشهوات

زيادة الجاه التي تدعوا إلى التفرد بالحكم، إن الحكم في البادية رئاسة بالعصبية تقدم له القبيلة واحدا منها و تطيعه برضاها ثم تشاركه في أعباء الحكم و في جاه الحكم أيضا. فإذا قوي أحد الرؤساء ، لزيادة في ماله و عصبيته أو قدرته ، آثر أن يكون الحكم خالصا له لا يشركه فيه أحد . و بما أن ذلك لا يتيسر في البادية فإنه ينتقل إلى الحضر و ينشأ ملكا قائما على العصبية جديدة ضعيفة حيث يختار المستبد بالحكم دون قومه عصبية أجنبية ضعيفة حتى تكون له وحده ثم تكون ضعيفة عاجزة عن منازعته .ومع الأيام تقوى هذه العصبية فيتبدل المستبد بالحكم بها غيرها أو تستطيع هي أن تتغلب عليه و تنتزع الحكم منه ، فيتمكن من التفرد بالحكم و التمتع بثمرات الملك وحده ، ثم لا يكون لعصبيته الجديدة و لأتباعه المستجدين من تلك الثمرات إلا ما يتفضل هو به عليهم.

أما الوسيلتان فهما:

أن ينتقل صاحب الجاه الواسع و العصبية القوية إلى حاضرة قديمة يقيم فيها لنفسه ملكا و يتمتع بما في تلك الحاضرة القديمة من وجوه الراحة و النعيم و الترف.

أن ينقل صاحب الجاه و العصبية وجوه الترف إلى حيث يقيم هو فتنقلب البداوة نفسها حينئذ حضارة ضاهرة من غير براعة في الصنائع و لا قدرة على العمل في زراعة أو إدارة أو ثقافة ، بل يكتفي اهل الحضارة المجلوبة إلى قطرهم البدوي بإستيراد الضروريات و الكماليات إلى قطرهم و مع الأيام تنشا في ذلك القطر حضارة أصلية و براعة في الصناعة شيئا فشيئا.

ب- العمران الحضري و خصائصه: [1]

يقول إبن خلدون : " الحضارة هي تفنن في الترف و إحكام الصنائع المستعملة في وجوهه (وجوه الترف) ومذاهبه من المطابخ و الملابس و المباني و الفرش و الأبنية و سائر عوائد (عادات) المنزل و أحواله ، فلكل واحد منها صنائع في إستجادته و التأنق (التخير) فيه تختص به ويتلو بعضها بعضا و تتغير باختلاف ما تنزح إليه النفوس عن الشهوات والملاذ والتنعم بأحوال الترف وما تتلون به من العوائد...

وللعمران الحضري خصائص منها:

أ. الاستقرار: أول خصائص الحضارة(التحضر)أي النزول في بلد كبير نزولا دائما و العمل في وجوه المعاش الحضرية من تجارة وصناعة وكلما كان البلد اكبر واكثر سكانا كانت الحضارة فيه او في اوجه الراحة و النعيم فيه اكثر.

ب. التوسع في المأكل و الملبس والمسكن: و اول ما يقوم به المستحضر ان يتوسع على نفسه وعلى أهله و أتباعه في المآكل ثم الملابس ثم المساكن

ج. التأنق في اسباب الحياة :ومع الايام يحاول المتحضر ان يتأنق في مآكله وملابسه و مساكنه بان يتناول اطعمة مختلفة من تلك التي كان يتناولها من قبل أو بعلاج أطعمته الأولى علاجا جديدا و تقديمها على المائدة على صورة جديدة.

د. الترف : أي الإخلاد إلى الراحة و التنفس في النعيم و الإستكثار من المطاعم و الملابس و المساكن و من التمتع بجميع وجوه الحضارة ما أمكن.

ك. إستبحار العمران : إن التوسع في وجوه الحياة و التأنق فيها و الإنغماس في الترف أمور تدعوا إلى الإقبال على شراء السلع المختلفة بأثمان باهضة و إلى إستخدام الجماعات الكثيرة في الأعمال المختلفة و في الخدمة فيكثر دوران الأموال في الأسواق فتنشط التجارة و الصناعة و الزراعة و يعالي الناس في البنيان.

ل. إستجادة الصنائع : تطلب الدقة و الجمال فيها للتباهي بذلك ، فالحضري المترف يتخذ الثوب من الحرير باهظ الثمن ليباهي به أندادة في المقام الأول ، وربما إشترى الحضري الصناديق و الخزائن و الأسلحة القديمة و الحجارة الكريمة فيعرضها في قصره ليكاثر بها الآخرين من الأغنياء و يباهي .

م. الهياكل و المدن : فالمدن و الهياكل من عمل الحضارة و لا تستطيعها البداوة ، ثم إن الهيكل العظيم أو البلد الكبير العامر ليس من عمل شخص واحد أو أسرة مالكه واحده.

ن. الدول و الملك : الدولة من أولها بداوة ، و لكنها تكون في البادية " رئاسة بالعصبية " فإذا إنتقل صاحب الرئاسة بالعصبية إلى الحضارة أصبحت دولته ملكا ، من أجل ذلك ينتقل أصحاب الدول من البادية إلى الحضر

هـ. العلم : العلم ضروري في الحضر لتعدد وجوه الحياة للحاجة إليه في الصناعات ، ثم إن العلم من توابع الحضارة يتخذه الكثيرون من أهل الحضر للمفاخرة و المباهاة ، ولا يكاد يستفيد بعضهم منه شيئا . [2]

-([1]المرجع السابق ص 306

- [2]عمر فروخ ، المنهاج الجديد في الفلسفة العربية ، بيروت –لبنان ، دار العلم للملايين ، طبعة 3 ، 1982، ص 305-306-307-308

المحاضرة(02): العمارة الإسلامية

العمارة الإسلامية اسم أطلق على الفن المعماري، الذي ساد المناطق التي مستها الحضارة العربية الإسلامية بعد الفتوحات، و يشمل البلاد الواقعة بين خليج البنغال شرقا و المحيط الأطلسي غربا، وينطوي

هذا النطاق على ظروف طبيعية متقاربة، أنتجت وضع أسس متشابهة لحضارة معمارية تميزت منذ بدايتها، بصفتي الوحدة والتنوع[14].

لقد ساهمت في نشأة و تطور العمارة الإسلامية عدة عوامل دينية و بيئية و اقتصادية وسياسية تكاد تكون متشابهة في جميع أقطار العالم الإسلامي، مما زاد في توثيق روابطها، و أفضى على الطراز الإسلامي طابعه العام الذي يتسم به، وهو طابع الوحدة الظاهرة التي لا مجال لإنكارها رغم احتفاظ كل قطر بطابع محلي مميز له وخاص به[15].

كانت العمارة الإسلامية و لا تزال تحتل مكانة مرموقة بين طراز العمارة التي عرفتها الحضارة الإنسانية العامة، فمن جهة، أضافت العمارة الإسلامية إلى التراث المعماري العالمي نظما تخطيطية جديدة كالمساجد والمدارس و الزوايا، و من جهة أخرى أدخلت على نظم العمارة الجنائزية و المدنية و الحربية أنظمة جديدة جعلت لها طابعا فريدا مميزا، و ما "تاج محل" بالهند و"طوبقابي سرا" بإسطنبول بتركيا و قصر "الحمراء" بغرناطة بإسبانيا، إلا خير شواهد مادية حية باقية تكفي للتدليل على ذلك[16].و تنقسم العمارة الإسلامية تبعا للوظيفة التي تؤديها إلى عدة أنواع ومنها:

– **العمارة الدينية:** و التي تحتل المكانة الأولى و المقام الأسمى بين أنواع العمائر الإسلامية الأخرى، ويرجع ذلك إلى العاطفة الدينية و الرغبة في التقرب إلى الله سبحانه و تعالى. وتشمل العمارة الدينية المساجد و الجوامع والمدارس و الزوايا، و تأتي عمارة المساجد على رأس النظم التخطيطية في العمارة الإسلامية عامة و العمارة الدينية خاصة، فالمسجد هو بيت الله، و تعميره من أفضل القربات إلى الله عز و جل، و أسس المسجد لتقام فيه الصلاة التي هي عماد الدين، و من ثم علت منزلة المسجد عند المسلمين، علما أنه لم تقتصر وظيفة المسجد في أول الأمر على الصلاة، بل كان مركزا للحكم و الإدارة و الدعوة و التشاور، كما كان محلا للقضاء والإفتاء و العلم و الإعلام وغير ذلك من أمور الدين و الدنيا. فقد ارتبطت الفنون الإسلامية على اختلافها بالمسجد وبعمارته و أثاثه و شعائره[17].

---

[14] – G. Marcais:L’architecture Musulmane d’occident , Paris, 1955 ,p3.

[15] – شافعي فريد : العمارة العربية في مصر الإسلامية، المجلد الأول، عصر الولاة، القاهرة، 1980، ص– ص 231– 292، فكري أحمد: عوامل دراسات في الآثار الإسلامية، المنظمة العربية للتربية و الثقافة و العلوم، القاهرة 1979، ص– ص 1– 7.

[16] – محمد حمزة اسماعيل الحداد : المجمل في الآثار و الحضارة الإسلامية، ط1، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، 2006، ص485.

[17] – الباشا : مدخل إلى الآثار الإسلامية، مطبعة القاهرة، ط2، 1990، ص– ص 25– 26.

– **العمارة الجنائزية:** و تشمل المدافن و الترب و القباب و المشاهد و العتبات المقدسة، سواء كانت منفردة بذاتها، أو ملحقة بغيرها من العمائر الدينية غالبا و المدنية و الحربية أحيانا[18].

– **العمارة المدنية:** تشتمل على عدة أنواع من عمائر خيرية و صحية و سكنية و تجارية و غيرها.

أما العمارة الحربية فتشمل القلاع و الحصون و القصبات و ما يربط بها من أسوار و بوابات وأبراج و مرافق أخرى متعددة[19].

و في كتب الرحالة[20]، وردت عدة مصطلحات، منها ما تعلق بالمدن الإسلامية و مرافقها المختلفة، ومنها: الخطط، المحلات، الرحاب، الدروب، الشوارع، المربعات، الأزقة، المقابر، القرافة، المصليات، و غيرها من المصطلحات، كما وردت مصطلحات تتعلق بالعمارة الحربية، منها: الرباط، القلعة، الحصن، القصبة، المحرس، المرقب، الحصار، الخندق، البرج، السور[21]، و أخرى خاصة بالعمارة الدينية مثل المسجد، الجامع، الزاوية، المدرسة، الساحة، المئذنة، المقصورة، وغير ذلك، و أيضا مصطلحات خاصة بالعمارة المدنية، ومنها: الدار، البيت، القصر، الديوان، الرواق، الجناح، المقصورة، الميزاب، القبة، و غيرها[22]، كما وردت مصطلحات تتعلق بالعناصر المعمارية ومواد البناء و الزخرفة مثل، العمود، القوس، القنطرة، الركن الأسطوان، الآجر، الطوب، الحجر، الرخام، و غيرها من المصطلحات، علما أن هذه المصطلحات كانت متطابقة ومتشابهة مع مثيلتها التي وردت في كتاب المؤرخين المعاصرين، كان هؤلاء الرحالة يشيرون إلى المصطلح المتداول والشائع في بلدانهم، و ما يقابله في البلدان الأخرى التي يزورونها، مما سهل توحيد هذه المصطلحات بين الأقطار العربية و الإسلامية، و مثالا على ذلك، ما أورده المقديسي

---

[18] – محمد حمزة اسماعيل الحداد : المجمل في الآثار و الحضارة، المرجع السابق، ص488.

[19] – نفسه، ص نفسها، أما قبة الصخرة فكان بناؤها نموذجا معماريا نادرا في العمارة الإسلامية عامة، و في بلاد الشام خاصة، للمزيد عنها ينظر، بدر محمد عباس : قبة الصخرة، ضمن كتاب دراسات في الآثار الإعلامية، مطبعة القاهرة، 1979، ص– ص 75– 82، فان برشم، مارجريت، واوري، سولانج: القدس الإسلامية في أعمال ماكس برشم، ترجمة عطى الله دهينة و آخرين، دمشق، 1994، ص41، و ينظر أيضا، عبده عبد الله كامل: الأمويون و آثارهم المعمارية، مطبعة القاهرة، 2003، ص54.

[20] – هم كثيرون منهم : القلصادي– رحلة القلصادي/الحسن الوزاني: وصف افريقية/الورثيلاني: الرحلة الورثيلانية/ابن بطوطة: الرحلة/ابن جبير: الرحلة/المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب/المقديسي: أحسن التقاسيم/المقريزي: الخطط المقريزية، و غيرهم كثير.

[21] – محمد حمزة اسماعيل الحداد : المدخل إلى دراسة المصطلحات الفنية للعمارة الإسلامية، مكتبة زهراء الشرق، ط1، القاهرة، 2001، ص18.

[22] – نفسه، ص19.

عند حديثه عن أبنية غزنين[23] بقوله: "وبنيانهم عامته خشب، فيه شيء يقال له "غشك" يشبه فسيفساء مصر"[24].فالمقديسي يضيف مصطلحا جديدا غير معروف بين جمهرة الأثاريين و هو "غشك" أو فسيفساء، حيث توجد دولة أفغانستان كمرادف لمصطلح الفسيفساء و الذي كان متداولا في مصر و الحجاز و الشام و غيرهما من أقطار المشرق الإسلامي[25]، و هنالك مرادف آخر لهذين المصطلحين، كان شائعا في المغرب الإسلامي و هو "الفص المذهب"[26]، أو المفصص المعروف في المشرق بالفسيفساء[27]، و منه ما أورده ابن بطوطة عند حديثه عن مدينة النجف بقوله: "و حيطانها بالقشاني، و هو شبه الزليج عندنا، لكنه لونه أشرق و شكله أحسن"[28]، و قد عرف أحيانا باسم القيشاني أو الكاشن (القاشي) و هو ما ذكره ياقوت الحموي في معجمه[29]، أي أن مصطلح القشاني يرادف مصطلح الزليج في المغرب، و من قول ابن بطوطة عن مصر "و أما الزوايا في مصر فهي كثيرة، و هم يسمونها الخوانق واحدتها خانقة، و الأمراء في مصر يتنافسون في بناء الزوايا..."[30] ، أي أن مصطلح الخانقات بمصر يرادفه مصطلح الزاوية بالمغرب، و الذي كان يعرف أيضا بالرباط[31] قبل القرن 6هـ/12م.و بخصوص مواد البناء، أورد ياقوت الحموي عن الآجر بقوله "و هو بلغة أهل مصر "الطوب" و بلغة أهل الشام "القرميد""[32]، كما عرف الآجر عند العراقيين بـ"الطابوق"[33].

---

[23] – غزنين : وصفها المقديسي بأنها: "قصبة ليست بالكبيرة، إلا أنها رحبة منعمة رفيعة الأسعار، كثيرة اللحوم، طيبة الفواكه مع كثرتها، و لها مدن جليلة، و المعايش بها حسنة، و هي أحد فرض خراسان و خزائن السند"، ينظر، المقديسي: أحسن التقاسيم، بيروت، 1987، ص239.

[24] – نفسه، ص239.

[25] – محمد حمزة اسماعيل الحداد : المدخل، المرجع السابق، ص23.

[26] – ابن بطوطة : تحفة النظار في غرائب الأمصار و عجائب الأسفار، تقديم محمد سويدي، الجزائر، 1989، ص63.

[27] – المقري : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر للطباعة و النشر والتوزيع، ط2، بيروت، لبنان، 1998، ص– ص 69– 70.

[28] – ابن بطوطة : المصدر السابق، ص 119.

[29] – ياقوت الحموي : معجم البلدان، ج4، دار صادر، بيروت، لبنان، 1995، ص296.

[30] – ابن بطوطة : المصدر السابق، ص33.

[31] – الرباط: الحصن أو المكان الذي يرابط فيه الجيش، و الأنسب كلمة رباطات، و هي المعاهد الدينية و الموقوفة للفقراء، ينظر، ابن خلدون: المقدمة المصدر السابق، ص442.

[32] – ياقوت الحموي : المصدر السابق، ج1، ص51.

[33] – عباس التميمي: الطابوق، صناعته و أشكاله في العراق، مجلة سومر، العدد1 – 2، بغداد، 1982، ص– ص 276– 283

و ذكر المقديسي اختلافا في مسميات المنشآت التجارية، فذكر مثلا، فندق، خان، دار التجار[34]، و يقول ابن بطوطة: "و بكل مرحلة، و منها فندق، و هم يسمونه الخان، ينزله المسافرون بدوابهم، و بخارج كل خان ساقية للسيل و حانوت يشتري منه المسافر ما يحتاج إليه لنفسه ولدابته[35]، أي أن مصطلح الفندق الذي ما زال متداولا في المغرب، يرادفه في مصر لفظ الخان، حيث زارها ابن بطوطة عام 726هـ/1325م.

و بعد هذا الوصف للعمارة و مصطلحاتها و مقارنتها مع مصطلحي الحضارة والعمران، نستنتج أن العمارة هي الجانب التطبيقي و العلمي و الفني للعمران البشري والذي ينتهي بمظهر من مظاهر الحضارة الإنسانية، فمن خلال العمارة و منجزاتها و فنونها، نتعرف على درجة و مستوى ما حققته و توصلت إليه في مسيرة حضارتها.

- ضوابط وأسس تخطيط وتحصين المدن عند بعض المفكرين المسلمين:

أما بخصوص تخطيط المدينة و تحصينها وعمرانها فقد حدد المفكرون مجموعة من الشروط و المقاييس التي يجب مراعاتها في بناء و تعمير المدن وأولها في اختيار الموقع و المكان اللائق، فليس كل المواضع المعمورة صالحة للتعمير و المسكن و لا كل بقعة في كل موقع تصلح لذلك[36]، و من بين الشروط و المعايير نذكر:

أولا- شروط اختيار الموقع:

فقد تحدث القزويني عن تقاسم الأرض و حدد أفضل مكان لسكنها و تأثيرها على الأبدان وأخلاق الانسان، و أن منها الشرق و الغرب و الجنوب و الشمال، و ذكر أن معظمها لا يصلح للسكن، و أن ما يصلح للسكن من الأرض قدر يسير و هو أواسط الأقاليم الثالث و الرابع والخامس، ثم بين سلبيات المساكن الحارة و المساكن الباردة و كذا الرطبة و اليابسة و الحجرية، وآخر ما ذكره المساكن الآجمية و البحرية، و من خلال الأوصاف التي ذكرها فإن المساكن الرطبة والمساكن الآجمية و البحرية هي الأفضل للسكن لأن هواءهم معتدل ليس بشديد الحرارة و لا شديد البرودة، كما أن سكانها موصوفون بالسحنة – أي الحالة الجيدة-[37].

---

[34] – المقديسي : المصدر السابق، ص39.

[35] – ابن بطوطة : المصدر السابق، ص43.

[36] – محمد بن حمو: مجلة القرطاس، المرجع السابق، ص65.

[37] – القزويني: المصدر السابق، ص8.

و تحدث ابن خلدون عن الهدف و الغاية من انشاء المدن بقوله: "إن الغاية من تأسيس وبناء المدن هي إيجاد المساكن و المنازل و الملاجئ، و من الضروري نبذ الأشياء الضارة عن هذه المدن وأن نوفر في جميع هذه المساكن وسائل الراحة و المنفعة العامة" و حدد ثلاثة شروط يجب مراعاتها في اختيار الموقع وهي: دفع المضار، و جلب المنافع و تسهيل المرافق فقال: "أعلم أن المدن قرار تتخذه الأمم عند حصول الغاية المطلوبة من الترف و دواعيه، فتؤثر الدعة و السكون و تتوجه لاتخاذ المنازل للقرار، و لما كان ذلك للقرار و للمأوى وجب أن يراعى فيه دفع المضار بالحماية من طوارقها، وجلب المنافع و تسهيل المرافق لها"[38].

و يقول توفيق حمد عبد الجواد: "أي موقع المدينة الجغرافي الطبوغرافي سيشكل عاملا من أهم العوامل لتكوين الشكل العمراني للمدينة لنموذجها الوظيفي و لتحديد شخصيتها المعمارية، فالمدينة إما أن تكون ساحلية و ذلك ما هو نادر في التراث الاسلامي لجنوح المسؤول عادة عن الساحل لضرورات أمنية[39]، و ثمة بالطبع حالات خاصة، و اختيار موقع كهذا يظهر حرص مؤسس المدينة على تأمين عامل الأمان وغالبية المدن بنيت على طرق التجارة[40] و في سفح جبل قرب واد خصب"[41]، و هذا ما ينطبق على مدينة تيهرت التي تقع على السفح الجنوبي لجبل جزول، و يأتيها من الغرب نهر سمي مينة و نهر آخر سمي تاتش[42].

---

[38] – ابن خلدون: المقدمة، المصدر السابق، ص73، محمد سرباح، عبد القادر صاف: حوليا التاريخ و الجغرافيا، الملتقى الوطني الثالث، المدن الجزائرية عبر العصور، المرجع السابق، ص274.

[39] – فقد بنيت القيروان على بعد ستة و ثلاثين ميلا من البحر و نحو ميل من تونس، حسن الوزان: وصف افريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، ط2، دار الغرب الاسلامي، 1983، ج2، ص87، و برر عقبة بن نافع اختياره ذلك الموقع لأصحابه لما أرادوا لها مكانا قرب البحر قال: "إني أخاف أن يطرقها صاحب القسطنطينية، و يملكها، و لكن اجعلوا بينها و بين البحر ما لا يدركها معه صاحب البحر"، ابن عذارى المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب، تحقيق و مراجعة ج.س كولان وليفي بروفنسال، ط2، دار الثقافة، بيروت، لبنان،1983، ج1، ص19، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1380هـ/ 1965م، ج3، ص456.

[40] – يذكر برودال حول المدن ما يلي: "...نقاط جامدة فوق الخرائط، فهي تتغذى من الحركة، و ما تجارتها إلا حركة"، F.Braudel, civilisation materielle et capitalisme, paris, 1967, p. p 372- 374.

[41] – توفيق حمد عبد الجواد: العمارة الاسلامية فكر و حضارة، المكتبة الأنجلو مصرية، 1987، ص 300- 301.

[42] – و هذا ما أكده كل من الادريس، و صاحب الاستبصار و اليعقوبي بقوله مثلا: "تاهرت مدينة كبيرة آهلة بين جبال وأودية..." مؤلف مجهول: الاستبصار في عجائب الأمصار، تحقيق سعد زغلول، مطبعة جامعة الاسكندرية، مصر، 1958، ص66، الادريسي: المغرب العربي، من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، حققه و نقله إلى الفرنسية محمد بلحاج

و وضع ابن الأزرق شرطين أساسيين يجب مراعاتهما في اختيار مواضع المدن و هما دفع المضار وجلب المنافع[43]، و هو في الحقيقة كما قال محمد بن حمو: "ينقل عن ابن خلدون حرفيا إلا في القليل النادر"[44]، و اعتبر ابن الأزرق العمارة الركن الخامس من أركان الملك بعد نصب الوزير و إقامة الشريعة وإعداد الجند و حفظ المال[45].

أما ابن أبي الربيع[46] فقد حدد أربعة شروط لاختيار الموضع لإنشاء مدينة و هي كالآتي:

1- سعة المياه المستعذبة و ذلك بأن تكون قرب نهر أو بها آبار و عيون بحيث يأخذ الناس حاجاتهم من الماء عن قرب.

2- امكانية الميرة المستمرة، هي الطعام الذي جمع للسفر و نحوه فهو كل ما يصلح للادخار و يكون بالكثرة بحيث لا يحتاج أهلها إلى جلبه من مكان آخر و هذا ما نستشفه من الآية الكريمة: ﴿**وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ**﴾[47]، في أن فلسطين غاب عنها هذا الشرط حيث توفر في مصر، مما اضطر أهل فلسطين إلى الخروج للبحث عن المسيرة.

3- اعتدال المكان و جودة الهواء، و هذا مهم لحياة الكائن الحي و سلامته من الأمراض، فهنا يذكر القزويني: "ثم إن الملوك من الأمم الماضية لما أرادوا بناء المدن أخذوا آراء الحكماء في ذلك، فالحكماء اختاروا أفضل ناحية في البلاد و أفضل مكان في الناحية و أعلى منزل في المكان من السواحل والجبال و مهب الشمال، لأنها تفيد صحة أبدان أهلها و حسن أمزجتها، و احترزوا من الآجام والجزائر و أعماق الأرض فإنها تورث كربا و هما"[48].

صادق،= =المؤسسة العامة للنشر والاشهار، حيدرة، الجزائر، 1983، ج3، ص274، اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، دار صادر بيروت، د.ت، ص149.

[43] – ابن الأزرق: بدائع السلك في طبائع الملك، تحقيق محمد عبد الكريم، الدار العربية للكتاب،1988،ج1،ص 356-357.

[44] – محمد بن حمو: مجلة القرطاس، المرجع السابق، ص68.

[45] – ابن الأزرق: المصدر السابق، ج1، ص223.

[46] – ابن أبي الربيع: سلوك المالك في تدبير الممالك، دراسة و تحقيق ناجي التكريتي، منشورات عويدات بيروت، ط1، 1978، ص136، محمد بن حمو: المرجع السابق، ص67.

[47] – سورة يوسف: الآية 65.

[48] – القزويني: المصدر السابق، ص8، محمد بن محمد: القرطاس، المرجع السابق، ص66.

و قد ذكر المسعودي خبرا عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه بعد نجاح الفتوحات الاسلامية في العراق و الشام و مصر و غيرها، كتب إلى أحد العلماء مستوصفا بقاع المعمورة: "إنا أناس عرب، و قد فتح الله علينا البلاد، و نريد أن نتبوأ الأرض و نسكن البلاد و الأمصار، فصف لي المدن و أهويتها ومساكنها و ما تأثره الترب و الأهوية في سكانها" فكانت وصفة ذلك الحكيم تتضمن مضار الحياة بالمناطق الباردة و الحارة، و منافعها بالمناطق المعتدلة، و رصد خصائص البيئة في عدة بلدان مثل الشام، ومصر و اليمن و الحجاز و المغرب و العراق و فارس و الهند و الصين[49]، هذا الموقف يؤدي إلى استنتاج أن المسلمين الأوائل كانوا يتمتعون بفكر بيئي راق ارتبط بعدة اعتبارات أمنية و صحية و اقتصادية[50].

4- القرب من المراعي و الاحتطاب، لأن العيش كان يعتمد على الدواب، يأكلون من لحومها ويشربون من ألبانها، و يركبون ظهورها (ممكن الآية) فوجب توفر المراعي لها و أيضا الاحتطاب، لاستعماله في البناء و الطهي، و كان اختيار موقعي البصرة و الكوفة مناسبا للصحة و أحوال الابل حيث بعث عمر بن الخطاب للفاتحين موافقته يقول: "إن العرب لا تصلح بأرض لا تصلح بها إبلهم"[51].

---

[49] – المسعودي: مروج الذهب و معادن الجوهر، تقديم محمد السويدي، سلسلة الأنيس، موفم، الجزائر، 1919، ج2، ص- ص 41- 45.

[50] – كمال صيفوري: الفكر البيئي في الحضارة الاسلامية، مجلة كان التاريخية، دار ناشري الأرشيف العالمي، العدد 20، السنة السادسة، جوان 2013، رجب 1434، ص50.

[51] – كمال صيفوري: المرجع السابق، ص59.